مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 03 السنة 2020 ص 173 - 194

تاريخ الإرسال: 2019/12/25 تاريخ القبول: 2020/03/04
تاريخ النشر: 2020/07/02

مصداقية الزاوية بين التعليم القرآني و الالتزام الروحي للتصوف
the credibility of the Zaouia between the cornice enseignement and Spiritual Commitment

ط . د : بوكار عبد الرحمان[1] ، الأستاذ الدكتور / رأس مال عبد العزيز[2]
جامعة الجزائر02 أبو القاسم سعد الله Abdou.boukar1991@yahoo.com[1]
جامعة الجزائر02 أبو القاسم سعد الله ، rasmalabdelaziz@yahoo.fr [2]

الملخص:

يهدف البحث إلى التعرف على مدى حقيقة الالتزام الروحي للتصوف وإعطائه مصداقية للزاوية، والتي تعرف في الأصل أنها ركن البناء الذي يتم فيه العكوف على العبادة أو تلقي العلم بعيدا عن دنيا الناس ومشاغلهم اليومية.

فالزاوية تشبه المدرسة في تخطيطها وأجزائها ووظيفتها التعليمية، انطلاقا من بناء أو أنها مجال نشاط لطائفة من الطوائف ذات الطابع الديني والثقافي، فقد كانت بمثابة دار العدل التي يعود لها الناس لحل النزاعات بين المتخاصمين وإعطاء كل ذي حق حقه، كما ساهمت في تعليم قواعد ومبادئ الإسلام لدى أفراد المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الزاوية؛ الرباطات؛ التصوف؛ الصوفية؛ الالتزام الروحي؛ المصداقية.

Abstract:

المرسل: عبد الرحمان بوكار. Abdou.boukar1991@yahoo.com

The research aims to identify the true spiritual commitment of Sufism and give it credibility to the angle , Which is originally known as the cornerstone of the building in which worship is carried out or receive knowledge away from the wolrd of people and their daily concerns .

Zawiya is similar to the school in its planning , parts and educational function , based on activity of a range of religious and cultural communities , it served as the home of justice for people to resolve disputes between adversaries and give everyone their right , and contributed to teach the rules and principles of islam among members of Algerian society

Keywords: Corner , ligaments , mysticism , Sufism , spiritual commitment , credibility .

1.مقدمة:

تعد الزاوية من المؤسسات الدينية والثقافية والروحية التي اقترن ظهورها مع اتجاه الحركة الصوفية شيئا فشيئا والتي شكلت قطيعة مع مرحلة تصوف الأفراد بالانخراط التدريجي في المسار الذي سيحكم مستقبل المشروع الصوفي، نعني بذلك تصوف المؤسسات أو التصوف شبه المنظم.

بالإضافة إلى ذلك فقد تعلقت همتنا بتتبع المؤسسات التي احتضنت مختلف نشاطات الحركة الصوفية والتي تتعاطى مع أنشطة روحية أو معرفية سواء خلال مرحلة تصوف الأفراد أو مرحلة التصوف شبه المنظم ، محاولين الوقوف على انعطاف ذلك على تطور الذي عرفته الظاهرة الصوفية على المستوى التنظيمي وموقع مختلف مؤسسات النشاط الصوفي من هذا التطور السابق لتلك المؤسسات الموروثة مثل الدور والربط والرابطات والمؤسسات: نعني بها أساسا المساجد الجامعة والمؤسسات الجديدة وكلها تنحصر في مؤسسة الزاوية، والتي كان لظهورها في العهد الحفصي الأول دور أساس في إعطاء الحركة الصوفية دفع تنظيمي جديد

واكتسابها واحد من أهم مقومات الاستمرار التاريخي والانخراط في ذروة الفترة الطويلة ألا وهو الاستقلال بالقضاء الذي يحتضن الأنشطة على اختلافها والإطار الذي يقنن شبكة العلاقات بين المتصوفة على تشبعها.

إذ تعد فاعلا رئيسيا في المجتمعات الإسلامية من خلال الدور المنوط بها فهي قطب الروحي، وحرس لحدود وصمام الأمن والأمان ومعين العلم والمعرفة، وكذلك هي الحافظ الأساس للإسلام والعربية وصيانة عقيدة المسلمين، وأيضا الثوابت الأخلاقية والسلوكية والمرجعية الدينية والهوية الوطنية، فهي إذن، مؤسسات دينية تربوية تعليمية اجتماعية ثقافية وهي أيضا مركز إشعاع حضري ومكان تنظيم وتربية وهي الرافد الفكري والعلمي والثقافي والحضاري الإسلامي الأصيل، واشتهرت الجزائر في مختلف ربوعها بهذا النوع من المؤسسات الدينية المتمثلة في الزوايا والمدارس القرآنية العلمية؛ فساهمت قديما وحديثا في الحركة الثقافية والعلمية واهتمت بتحفيظ القرآن الكريم وتدريس الحديث النبوي الشريف، وتلقي العلوم والمعارف الشرعية واللغوية بطرق تعليمية ناجعة وناجحة، وشكلت نموذجا فريدا في التعليم والتربية الإسلامية وخدمة الدين والعلم والمعرفة.

1. نشأة الزاوية بالمغرب العربي عامة والجزائر خاصة :

ظهرت الزوايا في المغرب العربي منذ القرن السادس للهجرة والثالث عشر ميلادي، حيث حلت تدريجيا محل الرباط ثم تطورت مهامها وتوسعت على يد المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية وجمعت بين العبادة والتعليم والتوجيه والإصلاح والجهاد في وقت واحد.

إن أقدم زاوية ظهرت في أواخر القرن السادس هجري المتمثلة في زاوية "أبي زكريا يحي الزواوي (611هـ-1215م) [1] ببجاية"، وهي في آن واحد أقدم إشارة إلى الزاوية حيث أنها كانت عبارة عن بناء صغير ملحق بمسجد يقوم فيها صاحبها

بالتعبد و الخلوة بمفرده ويشرف على خدمته بعض من أهله المقربين ، الأمر نفسه بالنسبة لزاوية الشيخ "سعادة بالقرب من طولقة في القرن (6هـ-13م) [2] وكذلك بالنسبة لزاوية "أبي حجلة عبد الواحد" في تلمسان ، هذه الأخيرة تذكر بالزاوية في طور تأسيسها الأول بالمشرق الإسلامي حيث كانت مجرد ركن من أركان المسجد يختلي فيها أحد الصوفية أو العباد وينفرد من هنا تسميتها بالزاوية ، واحتفاظ المؤسسة بالاسم في فترة اللاحقة رغم استقلالها عن المسجد معماريا وفي وظائفها إلا أنها تنذر من ناحية أخرى بما ستؤول إليه .

لقد كانت الزوايا تسمى "بدار الضيف" وقيل أيضا أنها عرفت بعد القرن (5هـ) وسميت في بادئ الأمر "بدار الكرامة" كالتي بناها الملك يعقوب المنصور الموحدي المراكشي وبحلول القرنين العاشر والحادي عشر هجري ازداد عدد الزوايا خصوصا في المغرب العربي الأقصى ومن أشهرها الزاوية الدلائية لشيخنا سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي[3]. أما في الجزائر تزايد عدد الزوايا على مر السنين وانتشرت انتشارا واضحا، فعمت كل جهات البلاد وخاصة غربها ووسطها ففي الناحية الغربية كثرتها تعود إلى كثرة زوايا المرابطين والغرب الأقصى على حجاج ورحالة المغرب الذين كانوا يعبرون الجزائر، ويقودون فكرة المرابطين وينشرون مبادئ زواياهم وشيوخهم بعد الاحتلال الاسباني لبجاية، وقد بلغ عدد الزوايا المنطقة القبائل 60 زاوية[4].

وهكذا تكون في الجزائر خلال القرن (9هـ-15م) مجموعة من الزوايا منها: الزاوية الثعالبية في مدينة الجزائر، والزاوية الملارية في مدينة قسنطينة، والزاوية السنوسية بتلمسان وغيرها كثير، وكثر هذا النوع من الزوايا ابتداء من القرن (العاشر هجري/ السادس عشرة ميلادي) بعد تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في البلاد، بمجيء الأتراك العثمانيين وبسط سلطانهم على البلاد، ثم استمرت الزوايا

في أداء دور التربية والتعليم خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر[5] وامتد نشاطها إلى سنوات الاستقلال عام 1962.

لقد سجلت الزوايا القرآنية صفحة تاريخية مهمة في الجزائر وتاريخها السياسي والثقافي والديني يدل هذا على الدور العظيم الذي قدمته الزوايا في نشر الوعي الديني والثقافي في المجتمع الجزائري منذ نشأتها، و كانت هذه الزوايا مؤسسة من طرف مشايخ كاملين، ورجال متصوفين وعلماء بالله عارفين قصدهم وجهة الله عز وجل لا يريدون من أحد جزاء ولا شكورا[6] خصوصا في الريف لان تأسيسها يعود لإتباع المرابطين.

2. الزوايا و الرباطات في الجزائر:

يذهب الكثير من الباحثين والمؤرخين إلى أن الزاوية كانت في الأصل رباطا تحول مع مرور الزمن إلى زاوية ومن المعروف لدى الخاص والعام أن للرباط في تاريخ الإسلام مكانة مقدسة ، فقد انتشرت الزوايا والرباطات في الجزائر بشكل ملفت للانتباه حوالي القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي، وهي مسيرة عرفتها الجزائر بشكل عام في هذا القرن، حيث ساد ظهور عقيدة المرابطين وانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف العلمي[7].

فنشأة الزوايا في الجزائر يرجع إلى ما يسمى بالرباط الذي أطلق على بعض الثكنات العسكرية التي تقام في الثغور، ويحرس المجاهدون فيها الحدود الإسلامية والإقامة في هذه الرباطات للدفاع عن الإسلام والمسلمين، ويعد ضرب من العبادة العالية ونوع من الجهاد[8]، وبمرور الزمن أصبحت هذه الرباطات أماكن لإيواء الزهاد والصوفية الذين يعتكفون على العبادة ودراسة القرآن والحديث خاصة في شهر رمضان، وصارت هذه الرباطات تقوم مقام الزوايا من ذكر وتعليم وبعدت عن أصلها الذي هو حراسة الحدود ولاسيما أيام السلم والهدنة.

لقد كانت الرباطات تشبه الزوايا من بعض الوجوه، وهي مثلها في خدمة الدين والمجتمع، ولكن الرباطات كانت تمتاز بأنها قريبة من مواقع الأعداء، وأن تأسيسها يهدف بالدرجة الأولى إلى خدمة الجهاد والدفاع عن حدود الإسلام مع أداء مهمة العلم أيضا، ولعل تاريخ هذه الرباطات يرجع إلى أواخر القرن الثاني هجري؛ حيث أسست على طول الساحل الجزائري من ميناء القالة شرقا إلى ميناء الغزوات غربا[9]، وكانت منتشرة على السواحل التي نزل فيها الأعداء لصدهم، فكان الطلبة جنودا في نفس الوقت يجتمعون بها وينطلقون منها ويأوون إليها للزاد والسكن، وبعد إبعاد الأعداء عن معظم السواحل انحصرت الرباطات في الغرب الجزائري مكان تواجد الأسبان في وهران وفي المرسى الكبير وحيث الخطر كان داهما بشكل واضح.

وقد أدت الرباطات دورا كبيرا في فتح وهران الأول سنة 1119 م والثاني 1205[10]، واشتهر من الرباطات في الفتح الأول مصطفى الرماصي وأبو الحسن العبدلي كما أشتهر من علماء الرباطات أيام الفتح الثاني محمد بوجلال والطاهر بن حواء ومحمد بن علي الشارف المازوني ومحمد المصطفى بن زرقة، ومن أقدم رباط بونة وهو المعروف برباط مروان البوني الذي أسسه أبو عبد الله الأندلسي الأصل الذي سكن ببونة "عنابة" وكان من الفقهاء ، توفي رحمه الله في 44هـ الموافق ل 1048م بعنابة ودفن بها وقبره يعتبر من أشهر الزيارات في الشرق الجزائري ، فالرباطات إذن كانت قلاعا من جهة وزوايا ومدارس متنقلة من جهة أخرى .[11]

كانت الرباطات تغذي الروح على منهج المرابطية الجهادية وأعمال من التواصل الاجتماعي بمباشرة التعليم و التربية العامة وأعمال النشاط الاقتصادي بمباشرة الزراعة وتعمير الأرض من قبل المرابطين حتى أصبح الرباط بهذا العمل التوحيدي عاملا من العوامل الثقافية في تكوين الروح الثقافية من منهج التوحيد الذي امتدت به الزوايا[12]. ويمكن اختزال وظائف الرباط إلى:

1-وظيفة دفاعية : فالرباط في هاته الحالة يكون دائما على حدود الدولة(ثغر) وبالتالي لا يكون الموقع قارا مادام أن أمن الدولة في التصور الإسلامي غير قار.

2-وظيفة جهادية : في هاته الحالة يعني (الرباط)جهادا داخليا يتمثل في نشر المذهب السني ولو اقتضى الحال بالسيف (التجربة المرابطية) .

3-وظيفة سياسية : في هذه الحالة يعمل (الرباط)على تأسيس دولة [13].

3.أنواع الزوايا في المجتمع الجزائري : إن تعدد الزوايا بالجزائر سمح بوجود أنظمة مختلفة أدت إلى وجود ثلاث أنواع من الزوايا وهي زوايا المشايخ وزوايا المرابطين وزوايا الطلبة.

1.4 النوع الأول : زوايا المشايخ: وهي ملكية خاصة ونظامها يشبه النظام الملكي الوراثي وصاحب هذه الزاوية يكون عادة صاحب طريقة، ويعرف عندنا بشيخ الطريقة الذي يعطي الأوراد أي الميثاق وهذا الشيخ له إتباع ومريدون يسمون الإخوان والزوايا تقوم على أكتاف هؤلاء المريدين والمحسنين، الذين ينتمون للزاوية، ويجمعون لها الزكاة والصدقات والتبرعات من الشعب، ويقدمونها للشيخ، وهو المشرف والمسؤول المباشر على زاويته وهو صاحب الحل والعقد، فلا يحق لأي إنسان أن يتدخل في شؤون الزاوية من قريب أو بعيد، فالأموال التي تدخل إلى الزاوية تذهب إلى الشيخ مباشرة يتصرف فيها بمعرفته، فلا أحد يحاسبه عليها أو يراقبه، وهو الذي يعين المعلم أو يعزله حيث يشاء وكذلك يعين المواد التي تدرس لطلبة[14]، وكل شيء يخضع لتقاليد الزاوية فإذا مات الشيخ استخلف بأحد من عائلته أخاه أو ابنه...، إنما عن طريق الوصاية أو تختاره العائلة وترشحه لمنصب الطريقة ويخلف الشيخ الراحل وذلك حسب تقاليد الأسرة[15]، وعلى سبيل المثال نجد من زوايا المشايخ في الجزائر(زاوية سيدي الشيخ بعين صالح وزاوية بلكبير بأدرار) والزاوية العلاوية قسنطينة، و زاوية الهامل القاسمية ببوسعادة...

2.4 النوع الثاني: زاوية المرابطين: وهي تختلف عن زاوية المشايخ في بعض الجوانب التنظيمية فزاوية الشيخ ملكية خاصة كما تقدم، يتصرف فيها كما يشاء وبعضهم يعيش هو وعائلته من موارد الزاوية، أما زاوية المرابطين فهي ملكية جماعية، فمواردها محبسه عن طلبة العلم، فالمرابطون أحفاد المؤسس الأول للزاوية لاحق لهم أن يأخذوا أشياء من الأموال، من زاوية جدهم والزكاة والصدقات والتبرعات والنذر والهبات سواء كانت نقود أم حيوانات هي للزاوية وحق لطلبة العلم والفقراء الذين يقصدون الزاوية.

وكل عائلة لها عضو في مجلس المرابطين يمثلها فلا أحد يستطيع أن يعمل شيئا أو يفرض رأيه إلا باتفاق الجماعة أو بأغلبية الأصوات ولهذا المجلس رئيس ويسمي الوكيل أي وكيل المرابطين أو وكيل الزاوية ويعين من طرف المرابطين ويخولون له السلطة ويكون المسؤول المباشر داخليا وخارجيا ويعتبر أيضا أمين المال، فالطلبة عندما يحتاجون شيئا يطلبونه من الوكيل المتصرف أما شؤون تعليم الطلبة فموكلة لشيخ الزاوية (المعلم) [16].

فالوكيل له سلطة مطلقة في تسيير شؤون الزاوية من الناحية الاقتصادية والإدارية مادام مستقيما وملتزما ومحترما لتقاليد الزاوية، أما إذا انحرف عن الجادة وخالفت تصرفاته النظام فإنه يعزل ويعين وكيل جديد خلفا له، وهذا بعد استشارة مجلس المرابطين وموافقته بالإجماع على العزل والتعيين في جو ديمقراطي تراعي فيه المصلحة العامة وتفضل مصلحة الزاوية والطلبة على جميع المصالح تقديرا لمقام العلم والقرآن[17]، وعلى سبيل المثال نجد زاوية (سيدي بهلول تيزي وزو– سيدي محمد واعلي– الحاج تيفريت– الحاج باعزازقة تيزي وزو) .

3.4–النوع الثالث: زاوية الطلبة: وهي فريدة من نوعها ووحيدة في قطر الجزائر، وهي زاوية سيدي عبد الرحمان الإيلولي والتي تقع في عرش أيلولة دائرة عزازقة ولاية

تيزي وزو، وأسس هذه الزاوية عبد الرحمان بن يسعد المصباحي الخردوشي ايلولي المولود حوالي 1030هـ 1620م[18]، إن زاوية الطلبة تختلف عن زوايا المرابطين فطلبتها يتمتعون بالاستقلال التام في شؤون تسيير مؤسساتهم، فلا يتدخل أحد فيها، والطلبة وحدهم مسؤولون عن الزاوية وتدبير شؤونها داخليا وخارجيا علميا واقتصاديا، والزاوية بهذا الشكل تكون بعيدة عن أي نوع من أنواع الضغوطات أو التدخلات، فهي تسير من طرف طلبتها، ولا تخضع لشيخ أو مرابط بل وحتى الشيخ الذي يعلم فيها، فالشيء الوحيد الذي يخضع له الجميع ويمتثلون له ولا يخالفونه إنما هو القانون أي قانون الزاوية أو ما يمكن أن يطلق عليه باسم الـــلائحة الداخلية للزاوية[19].

أما نظام التسيير في الزاوية فهو كالتالي : للزاوية رئيسان متعاونان أحدهما مكلف بشؤون الغدارة يسمى (مقدم الثمن) والأجر والآخر ...، منذ تأسيسها إلى غاية سنة 1956م عندما قنبلت الزاوية وأحرقها الجيش الاستعماري بعد حصار دام عدة أيام !. هذا النظام يشبه نظام وزارة التربية الوطنية عندنا ففي الزاوية نظام داخلي خاص بها يتولى تسيير الزاوية مجلس يتكون من اثني عشر عضوا من طلبة الزاوية، ويسمى هؤلاء الأعضاء المجلس، وكل عضو من هذا المجلس يسمى قديما والجديد عندهم هو الطالب الذي لا ينتمي إلى هذا المجلس، وهذا الأخير هو صاحب السلطة في الداخل والخارج وصاحب الحل والعقد والعضو في هذا المجلس إذا أتم دراسته وغادر الزاوية يعوض بعضو أخر ولكنه يبقي محتفظا بعضويته إلى أن يموت فإذا جاء زائر للزاوية لا يعامل كزائر أجنبي بل كعضو من المجلس له الحقوق نفسها والواجبات[20].

تشترك الزوايا الثلاثة في اتباعها للنظام الداخلي حيث يأكل ويسكن مجانا وتتكفل الزاوية بكل مصاريف ماعدا المجلس، ويذهب الكثير من الباحثين والمؤرخين

إلى أن الزاوية في الأصل كانت رباط تحول مع مرور الزمن إلى زاوية، ومن المعروف أن للرباط في التاريخ الإسلامي مكانة مقدسة؛ إذ هو الحصن الذي يحمي الثغور الإسلامية من أي خطر محتمل: كالحملات الصليبية على أرض الإسلام ومحاولات الغزو الاستعمارية المتكررة ضد أوطان المسلمين [21].

3. التعليم القرآني في الزوايا العلمية :

ما هو التعليم القرآني؟ أو ما المقصود بالتعليم القرآني؟ وكيف تطور التعليم في الزوايا التعليمية المنبثقة من القرآن الكريم باعتباره كتاب الله عز وجل والمصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي؟ وبناء عليه، يدخل في هذا المفهوم مختلف علوم الشريعة الإسلامية التي تدرسها مؤسسات التعليم العالي المتخصصة في علوم الشريعة والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعلومها، والعقيدة الإسلامية وما يتبعها من دراسة الفرق والمذاهب القديمة والحديثة والمعاصرة والفقه الإسلامي وأصوله، والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وعلوم الإلهيات التي يحتاج إليها كوسائل لدراسة علوم الشريعة كالمنطق وعلوم اللغة[22]، إذ ليس المقصود بالتعليم القرآني عند إطلاقه في هذا المقام مجرد تعليم القرآن الكريم وتحفيظه حيث أن مؤسسات التعليم القرآني مؤسسات تعليمية لها برامج وقرارات دراسية ومناهج دراسية وطرق تلقي العلم والمعرفة المتنوعة وفق منهج تعليمي تدريجي، بهدف تكوين المتعلم وتنمية ملكيته الدينية واللغوية والمعرفية من خلال منهج التعليم والمادة المقررة والتفاعل مع المحفوظ وممارسة الخطابة وفقا للإلقاء وتعزيز الملكية الإنسانية والمران اللغوي والدربة المعرفية.

4.وسائل التعليم القرآني في الزوايا العلمية: يقصد بالوسيلة التعليمية المواد التي تستخدم في حجرات الدراسة أو في غيرها من المواقع التعليمية لتسهيل وفهم المعاني والكلمات المكتوبة أو المنطوقة[23]، فهي إذن كل أنواع الوسائط التي تعين المعلم أو

المدرس على توصيل المعلومات والحقائق والعلوم والمعارف للمتعلم المتمدرس بأسهل الطرق وأيسر السبل، وإن استخدام وسائل التعليم في الزوايا والمدارس القرآنية وفي التعليم عموما يستمد مشروعيته من الدين الإسلامي الحنيف استناداً إلى النبي (ص) الذي يعد هادياً ومعلماً وميسراً ، فعند البحث في مبادئ التربوية التعليمية في سيرته وفي جانبها التربوي التعليمي نجد ما يثير العجب و الدهشة و يبعث على الإعجاب، ومن تلك المبادئ: استخدامه لكل وسيلة بصرية أو سمعية من شأنها أن تساعد على زيادة الفهم أو تأكيد المعنى و تجسيد المفهومات المجردة، وتحقيق الهدف المتوخى من الموقف التعليمي[24]، ولا شك أن "الرسول صلى الله عليه وسلم" بعث معلما وهاديا للناس، انطلق من معين الوحي ومنهجه معلما لأصحابه ومستخدما كل الوسائل والأساليب التي عرض لها القرآن الكريم، وحاول استخدام الأدوات والوسائل المتاحة في البيئة وتوظيفها لصالح تعميق المعاني و المعارف [25].

ومن الوسائل التعليمية التي استخدمها الرسول (ص) في تعليم أصحابه ما يلي:

1 الإشارة بالأصابع.
2 الإشارة باليد الواحدة .
3 الإشارة باليدين.
4 استخدام الحصى.
5 الرسم على الأرض.
6 العروض أو التوضيحات العلمية .
7 المجسمات و الدمى.
8 استخدام الأشياء الحقيقة.[26]

وإن العبرة في هذا الصدد ليس بعدد الوسائل التي استعان بها الرسول (ص) في عملية التعليم وإنما بتقرير المبدأ و الفكرة، حيث أن الرسول (ص) مشرع ويكفي استخدامه وسائل التعليم مرة واحدة سيكون أسوة وهادياً للمربيين في كل العصور[27]؛ ولقد حافظت المؤسسات الدينية على أصالتها مع تطور الوسيلة والتقنية والتقدم العلمي والتكنولوجي فشكلت وسائلها التعليمية المتمثلة في (اللوح، المداد، القلم، المصحف، المسطرة، الصلصال، السكين أو الشفرة)، ويضاف إليها الوسائل

الجديدة (السبورة، المكتبة الالكترونية، الأشرطة والأقراص السمعية والأجهزة السمعية البصرية، جهاز الحاسوب)؛ إلا أن أغلب الزوايا والمدارس تقتصر على الوسائل التعليمية القديمة، ذلك تحفظاً من استخدام الوسائل الحديثة التي يغلب عليها تشتت الذهن، وإضاعة الوقت واللهو عن الدراسة والحفظ.

4. نشأة التصوف وانتشاره:

ظهر مصطلح التصوف والصوفية في المشرق الإسلامي بالكوفة نظرا لقربها من بلاد فارس، عرفت كلمة صوفي الانتشار في (القرن 2 هـ)، وأول من أطلقت عليه "أبي هاشم الكوفي" المتوفى (سنة 150هـ/767م)، وإذا سألنا لماذا هذا القرن بالذات؟ أجابنا ابن خلدون بقوله " { ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقيمون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة } [28]، وحسب عبد الله عبد الرزاق إبراهيم يرى ماسينيون: أن أول تاريخ لظهور لفظ الصوفية كان في نصف القرن الثاني للهجرة، حيث أطلق لقب صوفي على (جابر بن حيان) تلميذ جعفر الصادق المتوفى (سنة 208هـ)، وكان ينتهج مذهب خاص به وعند حلول (ق 3 هـ) بدأت ملامح تشكل الطرق الصوفية على مناهج مختلفة و اتخذت لها مبادئ عامة مثل قولهم : أنه لا يوجد إلا الله ، ولا يوجد إلا حكم واحد، ولا يوجد إلا كتاب واحد، وهو القرآن الكريم، ولا يوجد إلا قانون واحد، ولا يوجد إلا طريق واحد مستقيم يوصل إلى حضرة الله تعالى[29].

وهناك رأي أخر أورده صاحب كتاب "التصوف الشرعي" في قوله: "أن حركة التصوف ظهرت إلى حيز الوجود تدريجيا من الإمام الحسن البصري 110هـ، وحاتم الأصم137هـ وإبراهيم بن أدهم 162هـ ثم عبد الواحد بن زيد177هـ، وشنقيق الباقي 194هـ وسري السقطي251هـ وإلى سيد الطائفة الجنيد 297هـ ، حيث بدأت قوى وأسس التصوف تشتد شيئا فشيئا، ولما جاء الإمام السهروردي صاحب عوارف

المعارف عام 632 هـ، والإمام بهاء الدين نقشبندي سنة 791هـ ، تمكنوا من تشكيل التصوف تشكيلاً إصلاحياً كاملاً وأرسوا دعائم بنائه بالكتاب والسنة، ثم توالت التجارب طوال قرون لإثبات كفاءته وتأثيره في الميدان تزكية النفس حيث سجلت صفحات التاريخ مآثر خالدة بماء الذهب[30].

أما وصول التصوف إلى المغرب الإسلامي وانتشاره، فيرجع حسب بعض الدارسين والمستشرقين إلى " ابن مسرة الأندلسي "269هـ –381هـ صاحب التصوف الفلسفي الذي يعتقد بأنه أثر في جل من ظهر من متصوفة المسلمين في المغرب الإسلامي، وخاصة في مدرسة ألمرية الأندلسية موطن العديد من سالكي سبل العرفان أمثال: محمد بن عيسى الألبيري " وابن العريف (ت537 هـ) وغيرهم.[31]

إن هؤلاء جميعا، وإن ذكر أحدهم التصوف عن "ابن مسرة" ، فإن تأثرهم "بأبي حامد الغزالي" وبتجربته الفلسفية والصوفية أكبر و أكثر وضوحا، وهي تجربة سنية أشعرية يعتقد وصولها إلى المغرب الإسلامي عن طريق "أبوبكر العربي" (س543هـ أو 1148م)، والذي قيل عنه أنه تشبع بفكر الغزالي وسلك مسلكه حتى حاز على "الخرقة"منه شخصيا؛ إذا كان "أبو بكر بن العربي" قد نقل تجربة الغزالي إلى المغرب فإن السبق في شرح و إذاعة أفكار و مؤلفات حجة الإسلام يعود خاصة إلى "ابن عريف"صاحب "المحاسن والمجالس" وهو المعاصر لأصحاب "أبي مدين شعيب بن الحسن" دفين تلمسان (ت 395هـ/1198م) ومشايخ "محي الدين بن عربي" كـ "محمد الدقاق" الذي توفى في بداية القرن (7هـ/13م) و ابن قيسي صاحب "خلع النعلين"[32].

كما أن حركة التصوف التي ظهرت في المشرق الإسلامي كان لها صدى قوي تجاوب معها المغرب الإسلامي مع مطلع القرن السادس هجري ، حيث وجدت لها ظروف ملائمة ومكانة سامية بين علوم التدريس الدينية وازدهرت أكثر في

الرباطات والمساجد والزوايا على يد شيوخ إجلاء مارسوا التصوف بصدق التوجه، وتحلوا برداء الزهد والتقشف, فأصبحوا أقطاب بارزين وزعماء مشهورين لطرق صوفية عديدة.[33]

وهكذا نجد أن تحديد فترة ظهور التصوف بالقرن الثاني الهجري، ما هو إلا تدقيق للمرحلة التي برز فيها ذلك التغيير المفاجئ في الحياة الروحية، وهو يعد بمثابة عملية تصحيح تهدف إلى العودة بالمجتمع الإسلامي إلى سالف عهده ووضعه على الخط الصحيح الذي رسمه له الرسول صلى الله عليه وسلم .

5.أسباب تعدد الطرق الصوفية : هناك عدة عوامل أدت إلى كثرة العدد في الطرق الصوفية الدينية منها:

1.8 طبيعة نظام الطريقة: فبعد أن يتلقى المريد من شيخه التربية الروحية البركة والإجازة، يفارقه ليؤسس هو الآخر مركزاً جديداً، يقوم فيه تقسيم المهمة، وهكذا تتحول الحركة إلى شبكة من المراكز متماثلة ومتباعدة، تتعدد بقدر ما يكثر المريدون وينشرون في الآفاق؛ إن الزاوية هي مؤسسة فريدة تكونت تحت ظروف بيئية اجتماعية وطبيعية خاصة[34]، والطريقة هي نظام روحي متعلق بها، وتسمي أيضا الطائفة أو الفرقة تبدأ كزاوية محلية يقوم شيخها بتعيين خلفاء له في مناطق شتى، وغالبا ما تصبح منازلهم زوايا فرعية وعددها غير محدد[35].

2.8 تعدد الطقوس وتعدد المشايخ: فكل من عنى له أن يتبع طريقاً فعل، وسماها باسمه واسم قبيلته أو عشيرته، وهذا مشاهد بكثرة في إفريقيا وغيرها عموما، وفي مصر خصوصاً فكل طريقة لها طقوسها الخاصة بها، أورادها وأذكارها التي يؤلفها شيخ الطريقة، ثم يقول أنه تلقاها عن النبي (ص) أو حدثه قلبه عن ربه، أو أوحيت إليه مناماً.. وهذا موجود في كتبهم[36]. ثم إن كل طريقة من هذه الطرق لها مشايخها

الذين تعتقد فيهم ما يعتقده الروافض (الشيعة) في أئمتهم"[37]، كما أن لها مواردها الخاصة بها دون بقية الطرق[38].

5. عوامل ظهور الحركة الصوفية في المغرب الاوسط:

إن حركة التصوف التي ظهرت في المغرب الأوسط خلال (القرنين 6هـ و7هـ/ 12و 13م) هي ظاهرة نتاج إرهاصات دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية[39] تعود جذورها إلى (القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي)[40]، ومن العوامل التي تمخض عنها ميلاد الحركة الصوفية في المغرب الأوسط ما يلي :-

1.9 العوامل الدينية:

1.1.9 حركة الزاهد: مثلما مهد التصوف في المشرق بحركة زهدية قبل (القرن 2هـ و8 م) شهد المغرب الأوسط أيضا بداية من (القرن 2 هـ/ القرن5 هـ)، (8 م /11م) حركة زهدية برزت ملامحها الأولى في سياق الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، حيث استقر بتلمسان الزاهد "وهب بن منبه" أحد كبار التابعين والصلحاء، ولما توفي أصبح قبره محل زيارة التلمسانيين ، و انطلاقا من (القرن 3 هـ / 9 م)، برزت حركة الزهد بشكل واضح مثلها "سيدي هيدور" الذي اتخذ من جبل وهران مكانا يتعبد فيه نسب إليه بعد ذلك..؛ وفي (القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي) انتشرت مظاهر الزهد في المدن للدولة الحمادية إذ نزل ببونة أوائل هذا القرن الفقيه الزاهد "أبو عبد المالك مروان بن محمد الأندلسي"(ت 404 هـ/ 1048م) وكذلك شهدت بجاية عودة الزاهد " أحمد بن واضح" الذي نقل إليها ما تعلمه من رحلاته المشرقية والقيروانية المتعددة [41].

2.9 العوامل السياسية: شكل المناخ السياسي في الدولتين الصنهاجيين الحماديين والمرابطين، عاملاً أساسا أدى إلى نشأة التصوف في المغرب الأوسط خلال النصف الأول من القرن (6 هـ /12م) فالمرابطون كانوا قبل بداية دعوتهم وفي أثنائها أهل

ربط ملتزمين بالسنة على المذهب المالكي ويعكس هذا حبهم للدين من خلال الجهاد لإعلاء كلمة الحق ، لذا كان أمراؤهم على درجة عالية من الزهد، من أمثلة ذلك: في تلمسان حيث زهد الأمير أبو زكرياء يحي بن يوغان (537هـ-1142م)، في الدنيا وأقبل على التصوف مقتديا بشيخه "عبد السلام التونسي"، الذي كلما جاءه أحد يطلب منه الدعاء، أشار عليه بالأمير المتصوف "أبو زكرياء بن يوغان"، وكذلك كان الحماديون يحترمون أهل الربط ولا يتدخلون في شؤونهم، وكان منهم من سلك طريق التصوف مثل أبي يوسف يعقوب الصنهاجي من أسرة علناس[42].

3.9 العوامل الاقتصادية والاجتماعية: نبه البعض من الباحثين إلى التلازم بين الثراء الاقتصادي وظهور الزهد والتصوف من ذلك أن مدن المغرب الأوسط التي شهدت حركة زهدية كطبنة والمسيلة وقلعة بن حماد و ورجلان و تقرت قبل القرن (السادس هجري /الثاني عشر ميلادي)، هي في الزمن ذاته مراكز تجارية ومعابر لحركة التجارة بين المغرب والمشرق وبلاد السودان، وكان لقمة الثراء الاقتصادية لهذه المدن، دور في تحويل الناس إلى الاهتمام بالمال، ما أخل بذلك التوازن الاجتماعي لصالح الأثرياء والتجار وصارت اعتبارات تقييم الأفراد وتحديد مراكزهم في المجتمع بناءاً على الدنيا وزينتها، مما أدى إلى ظهور أفكار تدعو إلى الزهد، ويبدو أنهم كانوا من الكثرة في طبنة مما جعل ابن حوقل يصف طبنة بالبيئة العامرة بالصلحاء، منهم عبد الرحمان بن زياد الله الطبني (ت401 هـ-1011م)؛ أما في المسيلة فقد ظهرت ملامح الزهد مع مخلوف المسيلي (ت 393 هـ - 1003 م)، وكذلك في قلعة بن حماد ظهر الزاهد قاسم بن مالك (توفي في النصف الثاني من القرن 5 هـ)، وفي تقرت ظهرت حركة الزهد الإباضية يحث عليها "أبو عبد الله محمد بن أبي بكر"، وفي بجاية ظهرت أولى نفحات التصوف السني التي نادى بها "أبو محمد عبد الحق الاشبيلي" (ت 581 هـ -1185 م)[43]

6. أهم الطرق الصوفية واستقرارها في الجزائر:

يقول الشيخ "عبد الرحمان الجيلالي" بأننا علي يقين أن انتشار هذه الطرق وتعددها وتفرعها إلى فروع عديدة ومنتشرة في جميع الجهات، إنما كان ذلك منذ القرن (8هـ ،14م) فقد اشتهر من هذه الطرق بالجزائر على الخصص تسع طرق وهي: { القادرية والشاذلية والخلواتية، والرحمانية والتجانية والعيساوية والطيبية والسنوسية والعمارية }.[44]

وقد حازت هذه الطرق الصوفية درجة رفيعة، في طبقات المجتمع الجزائرية بأسرها وذلك بسبب مشاركتها في الحياة اليومية للمجتمع وقيامها بأدوار عديدة وهامة منها: "الإرشاد والتوجيه" "والتعليم والفصل بين الناس في المنازعات وإصلاح ذات البين"، وقد استطاعت هذه الطرق الصوفية الدينية أن تملأ الفراغ الثقافي والروحي وحتى السياسي الذي كان يعيش فيه الريف الجزائري، ولعل من أهم أسباب نجاح الطرق الصوفية للجزائر هو التمسك بالدين الإسلامي رغم جل الصعوبات، ومشاركتها الشعب في آماله وطموحاته وهمومه وتطلعاته، مشاركتها له في يومياته وتفاصيل الحياة العادية، وفي العادات والتقاليد، الأفراح والمآسي، المناسبات الكبيرة منها والصغيرة وما إليها، فكونت تلك الرابطة القوية التي لا انقطاع لها بين أهل الطرق والزوايا والطبقات الشعبية.

حيث تنقسم الطرق الصوفية بالجزائر إلى نوعين أساسيين هما:

1.10 النوع الاول الخلواتي: الخلواتية فرقة شعبية قائمة على احترام المرشد، واشتهرت بدقتها للحسم في تدريب الدراويش، وفي نفس الوقت تشجعها للانفرادية، وبالتالي فقد تميزت بعملية اقتسام ولعادة الانقسام بشكل مستمر[45]، ويدعي شيوخها

المعرفة بأسرار دينية غيبية خاصة والقدرة على تلقينها لأتباعهم، فيفرضون عليهم أذكار خاصة يتلونها في خلوات خاصة معزولة ومظلمة لمدة معينة حتى يفتح الله عليهم، ثم يخرجونهم ليصبحوا مريدين حقيقيين وبعد ذلك يفرضون عليهم أذكار خاصة تدعى"الورد"، يتلونها يوميا بصورة جماعية غالبا بعد صلاة المغرب ويدخل في بادئ الأمر المريد إلى مكان صغير أو ضيق ومظلم نوعا ما، فيفرض عليه الشيخ اسما أو صفة من صفات الله تعالى يرددها باستمرار وبعينين مغمضتين؛ فيخرج بذلك مريدا أو فقيرا أو قندوزا قاطعا العهد لشيخه على ألا يتراجع، وأن يستمر على ولائه له وللطريقة والدعاية له، ومنهجية التربية عندهم تتم بذكر سبعة أسماء حسنى لقطع مقامات النفس السبعة في سبع خلوات وهي:

(لا إله إلا الله) للنفس الأمارة ثم (الله) للوامة ، ثم (هو) للمطمئنة ، ثم (حي) للراضية، ثم (قيوم) للمرضية، ثم (حق) للملهمة، ثم (قهار) للكاملة، ثم الاسم الأعظم الجامع للمنتهي، وقد فصل كل هذه المراحل الشيخ مصطفى القسنطيني (1252/ 1836) في شرحه للمنظومة الرحمانية[46].

2.10 النوع الثاني غير خلواتي: ولا يدعي شيوخها معرفة أسرار دينية معينة ولكن يتخذون لأتباعهم ورداً معيناً خاصا من الأذكار يتلونها بعد كل صلاة، ويقومون بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم بعض العلوم الدينية واللغوية، إما بأنفسهم أو بواسطة بعض المثقفين من أنصارهم وأتباعهم ويمكن اعتبار هذه الطرق غير خلواتية بمثابة كتاتيب قرآنية ولها دور مهم في نشر الثقافة بالجزائر إلا أن هذا النوع قليل جدا، ويكاد يندثر لانصراف الناس إلى المدارس والمعاهد والجامعات.

وغالبا ما يكون لشيوخ الطرق الصوفية ثقافة محدودة جدا لكن نفوذهم وتأثيرهم كبير جدا على أتباع ومريديهم بما يفرضونه عليهم من الأذكار و الأوراد و التسابيح،

واستفاد هؤلاء الشيوخ من بعض المثقفين الذين انضموا إلى صفوفهم في كتابة وتأليف كتب دينية في الزهد والتصوف وبعض أبواب الفقه بأسمائهم وألسنتهم[47].

7.الخاتمة:

أدت الزاوية دوراً محورياً في حياة المجتمع الإسلامي الوسيط والحديث عامة والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص، ذلك أنها ما فتئت تعتبر قلاعاً للزود عن قيم المجتمع ومقوماته وتراثه لاسيما بالنسبة للحفاظ على الدين والثقافة منذ بروز الزوايا كمؤسسات دينية اجتماعية محورية في المجتمع الجزائري، وحتى أيامنا هذه بتصديها للظواهر الغربية الدخيلة على المجتمع كظاهرة التسيير أو كبديل للفراغ الروحي لدى الأفراد ، ولا ينكر دور الزاوية في هذا الإطار إلا جاحد، ولا أدل على ذلك من دورها الريادي قبل الاستعمار وأثناءه بتبنيها لمقاومة المستدمر ودورها التعبوي في ثورة التحرير المباركة.

كما أن الزوايا هي الأصل الرئيسي لمؤسسات تعليم الدين وتحفيظ القرآن الكريم التابعة للصوفية، بالإضافة إلى التصوف الذي يهتم بالعبادات والزهد، مما يظهر دوره الروحي والثقافي وكذا الديني في إقامة الزوايا، إلا أن الزوايا والتصوف قد ساهما إلى حد كبير في المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية، وإعطائها طابع الصدق والمصداقية بين المؤسسات الاجتماعية والثقافية والدينية ...

5.المراجع:

1- الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 / 12 و13 م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ص223 .
2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 272.
3- نلي سلامة العامري، الولاية و المجتمع، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2006 ، ص 118.

4- صلاح مؤيد العقبي ، الطرق الصوفية و الزوايا بالجزائر، دار البراق ، لبنان ، ص 305.
5- أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق ، ص40 .
6- عبد القادر الشطي، السلفية الوفية مذهب أهل الحق الصوفية، دار هومة، الطبعة الأولى، الجزائر، 2002 ، ص310 .
7- .أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص26 .
8- عبد الرحمان بن أحمد التجاني، الكتاتيب القرآنية بندرومة من 1900 إلى 1977 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، .ص.15 .
9- صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص323 .
10- أبو القاسم سعد الله , المرجع السابق, ص273.
11- المرجع نفسه, ص273.
12- محمد أحمد طلس، التربية و التعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، ط1 ، بيروت، 1967، ص110
13- محمد ضريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، المغرب، 1992 ، ص34 .
14- محمد نسيب : زوايا التعليم و القرآن بالجزائر ، دار الفكر ، الجزائر، ص103
15- محمد نسيب ، المرجع نفسه ، ص104
16- محمد نسيب , المرجع نفسه , ص107.
17- محمد نسيب المرجع نفسه , ص116.
18- عبد العزيز الشهبي ، الزوايا و الصوفية و العزابة و الإحتلال الفرنسي في الجزائر ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، ص74.
19- نفسه , ص119.
20- ميمون محمود- زاوية سيدي عبد الرحمان الإيلولي ، أدوارها التعليمية وتراثها العلمى وأثرها في منطقة القبائل رسالة ماجستير في أصول الفقه ، كلية أصول الدين - الخروبة (جامعة الجزائر ، 2000-2001).(بتصرف)
21- صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص.32 .

22- محند أوإدير مشنان : (مقال) تتبع المسار العلمي والمهني لخريجي مؤسسات التعليم القرآني في الجزائر , مجلة رسالة المسجد , العدد الخامس , ذو القعدة- ذو الحجة 1436هـ/ سبتمبر- أكتوبر 2015م , ص64.
23- عبد الرحمان كدوك , تكنولوجيا التعليم , دار المفردات , الرياض/ السعودية , ط01 , 1425هـ/ 2000م , ص64.
24- حسين بن علي البشاري : استخدام الرسول صلّى الله عليه وسلم الوسائل التعليمية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الدوحة / قطر ، ط1 ،1421 هـ / 2000 م ، ص 65 .
25- المرجع نفسه ، ص22.
26- المرجع نفسه ، ص67 .
27- يوسف القرضاوي , الرسول و العلم , مؤسسة الرسالة , بيروت / لبنان , ط01, 1984 , ص132.
28- عبد الرحمان ابن خلدون , المقدمة ، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،ج 2، الدار التونسية للنشر و التوزيع ،1984، ص517.
29- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم, أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية , المطبعة الفنية , الجزائر 1990م , ص12.
30- سيدلي نورني سيدعلي , التصوف الشرعي , ط01 , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , 1425هـ/2000م ص،ص، 4،5 .
31- ساعد خميسي , أبحاث في الفلسفة الإسلامية , دار الهدى , الجزائر , 2002م , ص38.
32- المرجع نفسه , ص38.
33- المرجع نفسه , ص38.
34- سبنسر ترمنجهام ، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة و تعليق عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط 1، 1997، ص265.
35- المرجع نفسه , ص268.
36- ماهر محمود , مقدمة عن الصوفية ، الشبكة الإسلامية ، ص02.

37- عن اعتقاد الشيعة في أئمتهم انظر قلهاوزن ، ص 241 ، ص258. كذلك الشيبي ، ج1 ، ص 414 خلال حديثه عن عصمته للإمام ، ص 409 عن العلم اللدني ، ص427 عن الشفاعة ، ص 433 عن التقية .

38- ماهر محمود ، المرجع السابق ، ص 03 .

39- الطاهر بونابي ، المرجع السابق ، ص 46 .

40- محمد عبد المطلب , البلاغة والأسلوبية , ط 1 ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ، بيروت لبنان ، 1994، ص 172.

41- صلاح مؤيد , الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر (تاريخها ونشاطها) ، دار البصائر ، الجزائر 2008، , ص 86.

42- الطاهر بونابي ، المرجع السابق ، ص 63 ، ص 87 .

43- الطاهر بونابي ، المرجع السابق ، ص 90 ، ص 94 .

44- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج3 ، دار الأمة ، ط8 ، الجزائر ، 2007 ، ص 53، ص 54.

45- سبنسر ترمنجهام ، المرجع السابق ، ص 136

46- عبد الباقي مفتاح ، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلواتية ، الوليد للنشر ، الوادي ، 2004 ، ص 19 .

47- Louis rinn, Marabout et khouan etude sur l'slam en algérie- alger, 1884 ,PP 290,291